أتصفحه تصفحًا عابراً لحين طباعته ورقيًا، لكنَّ المفاجأة كانت أنني ما إنْ بدأتُ حتى وجدتُ نفسي مشدودًا إلى كلِّ سطر، كأنَّ الكلمات تُمسك بي وتأبى أن تتركني، فقرأتُ في جلسةٍ واحدةٍ من الهاتف نحو (120 صفحة)، مع أنني لا أذكرُ أنَّي قرأتُ مثل هذا العدد من الصفحات عبر الهاتف يومًا من الأيام، وذلك وحده شاهدٌ على أنَّ هذا الكتاب ليس نصًّا عابرًا، وإنّما هو أثرٌ صادقٌ خرجَ من روحٍ صَدَقتْ الله، فَصَدَقَها الله.

فهذا كتابٌ مبارك، بيِّنُ العبارات، جليلُ المعاني، صادقُ اللهجة، لا يساورك فيه ريبٌ وأنت تطالع صفحاته أنّك أمام شابٍ غيورٍ على دينه وأمّته، بصيرٍ بواقعه، ناقدِ النظرة في مجريات الأمور، عارفٍ بعدوِّه، واعٍ بمكائده، قد باع نفسه لله تعالى طلبًا لرضاه، لا يبتغي متاعًا زائلاً ولا مدحًا عابرًا، كلماتُه تنضح بالإيمان، وتغمرها الثقة المطلقة بالله سبحانه، مضمَّخةٌ بالعنفوان، ملتهبةٌ بصدق المشاعر، عامرةٌ بالحبّ لإخوانه وشركاء دربه، وللوالدين والزوجة والخِلان والمحيط.

إنْ نظرتَ إلى الشهيد محمد زكي إنسانًا، رأيتَ كمال الإنسانية يتجسّد في شمائله: في لطفه مع إخوانه، ووفائه لأسرته، وتواضعه في حضرة من حوله، وإنْ نظرتَ إليه مجاهدًا، ألفيتَه أسدًا هصورًا، رابطَ الجأش، شديدَ العزم، صلبَ الإرادة، وإنْ كان لا يُكثِر الحديث عن نفسه، بل يَفيضُ قلبُه بالكلام عن إخوانه، يرفعهم في ميزان الوفاء، ويُشيد بعطائهم وبذلهم وفزعتهم للجهاد، حتى يُخيَّلَ إليك أنَّ كلَّ سطرٍ يكتبه إنَّما هو وسامٌ على صدورهم.

تقرأ لمحمد زكي، كأنك تقرأ لابن النحاس الدمياطي، كلاهما جمع بين علم الرباط ومقاليد الجهاد، ونسج من القناعات النظرية مشروعًا عمليًا حيًا في الميدان، وإذا كان ابن النحاس قد ترجم فقه الجهاد إلى بذل الدم في سبيل الله، فإن محمدًا بن زكي قد أعاد هذا